الضدية للتقنية – قراءة في كتابات ثيودور كازينسكي وجاك إلول

يرتدي ملابسه على عجل ليتّقِ برد كوخه الصغير، يحمل بارودته القديمة، يضع في جيبه القليل من الرصاص وأعواد الثقاب وعلى خاصرته سكيناً فربما اضطر إلى إيقاد نار لظرف طارئ. ينطلق ثيودور عبر الثلج باحثاً عن أرنب برّي ليصيده. يراقبه الأرنب عن بعد ويترقب خطواته من وراء أغصان شجرة صنوبر سقطت مؤخراً. ينبطح في مكانه ويضع رأس الأرنب في مهداف البارودة ليطلق رصاصة تقتله فوراً. ذماء الأرنب يتمثل باضطراب ساقيه، عند توقف رعشتهم يذهب ثيودور إلى فريسته ويشكر "جدو الأرنب" (إلهٌ ابتكره كوصيٍ على أرواح الأرانب). لدقائق بعدها يتأمل ثيودور كازنسكي الثلجَ وأشعة الشمس تغربلها أغصان شجر الصنوبر مُقدّراً الهدوء والخلوة.

هكذا وصف كازِنسكي بداية أحد أيامه عندما سكن في كوخه في ولاية مونتانا، حيث وحين حاول العيش حياة بسيطة بعيداً عن التكنولوجيا والمجتمع الصناعي، تاركاً وظيفته كأستاذ رياضيات في جامعة هارفارد. ثيودور المعروف بتيد يقضي الآن ثمانية أحكام متتالية من السجن المؤبد لتسببه في مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة أكثر من عشرين شخصاً باستخدام متفجرات صنّعها يدوياً وأرسلها عبر البريد. الأهداف هم شخصيات ومؤسسات مرتبطة بالعالم الصناعي كجامعات ومطارات، الهدف الأيدولوجي من عملياته هو التحذير من التكنولوجيا التي تغوّلت على الطبيعة التي سكن فيها والتي بنظره ستمسح الحرية والكرامة وحتى الحياة الإنسانية عاجلاً أم آجلاً. أرسل ثيودور المانيفستو المشهور بعنوان "المجتمع الصناعي ومستقبله" Industrial Society and its Future واعداً بالتوقف عن التفجيرات إن نُشر في جريدة التايمز أو الواشنطن بوست. بعد نشره ميّز أخوه أسلوب الكتابة وبلّغ السلطات ليتم إلقاء القبض على تيد في الثالث من إبريل 1996.

هل تشكل التكنولوجيا خطراً يستحق إرهاباً لإشعال ثورة ضدها؟ تيد كازِنسكي ليس أول ولا آخر المُنذرين من عذابات التكنولوجيا وسطوة التطور الصناعي على البشر وآثاره على الطبيعة لكنه من أشهرهم. للأسف شهرته ترتكز على كونه مجرماً ويصوره الإعلام دوماً بالمجنون المتطرف دون التطرق لأفكاره. عندما اطلعت على كتاباته وجدت فيها ما يستحق التفكر والنشر لذا قررت أن أكتب مقالة تلخص بعض ما وجدت كي أُنِصفه.

التكنولوجيا خصم الحرية

تم تناول موضوع طبيعة التكنولوجيا الحديثة وخطرها والآفاق التي فتحتها من قِبل عدد من المفكرين عبر الزمن، منها المشهور والمُعقّد فلسفياً كمقالة مارتن هايدغر المتعلقة بجوهر التقنية The Question Concerning Technology ومنها العام كمقالة ثوماس كارلايل عن العصر الميكانكي Signs of the Times ومنها المُفصّل ككتابي لويس ممفورد عن أسطورة الآلة Myth of the Machine والعديد غيرهم. الفلسفة الناقدة للتكنولوجيا ما زالت على أطراف الأوساط الفلسفية الغربية المعاصرة. هذه المقالة لا تدعي أبداً شمول جميع وجهات النظر حول فلسفة التكنولوجيا، سأكتفي بكتاب "المجتمع التقني" Technological Society للفيلسوف الفرنسي جاك إلول بالإضافة إلى كتابي تيد كازِنسكي ("العبودية التكنولوجية" Technological Slavery و"ثورة ضد التكنولوجيا: لماذا وكيف" Anti Tech Revolution: Why and How) المنشورَين بعد إلقاء القبض عليه بمساعدة ديفيد سكربينا وهو بروفيسور فلسفة في جامعة ميتشيغان وله كتاب "ميتافيزيقيا التكنولوجيا" Metaphysics of Technology الذي يحتوي على تاريخ نقد التكنولوجيا والمفكرين الذين حذّروا بطريقة أو بأخرى من العواقب التكنولوجية وسط فلسفة الكاتب المعنية بميتافيزيقية التكنولوجيا.

أفكار الكتابيَن ليست ببساطة ذم بعض أوجه التكنولوجيا والتقنية كمظاهر واختراعات منفصلة، أو كأضرار جانبية لأنظمة اقتصادية أو سياسية أو ثقافية، بل قوامها نقد النظام التكنولوجي والتقني كقوة لها طبيعتها المستقلة التي تسيطر على الإنسان لا العكس كما يعتقد معظم الأناسي. النظام التكنولوجي يتحكم بكل الجوانب المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي من سياسة واقتصاد وعادات. يمكن القول بأنهما ينذران بخطورة "الجبرية التقنية" Technological Determinism ويدعوان للتفوق عليها. الجبرية التقنية نظرة يتشارك فيها -بدرجات متفاوتة- بعض نقاد التكنولوجيا وبعض محبيها مثل ريموند كِرزويل.

بعض القراء قد لا يروق لهم ما سيأتي، التكنولوجيا سهلّت الحياة وفتحت آفاق المعرفة وطَوَت المسافات في نظرهم، لكن هل يتساءل هؤلاء عن المقابل؟ الطيران الذي يتيح لنا السفر، ألا يتيح في المقابل القصف الجوي؟. أو سيرون في الطرح اختزالية أو تركيزاً مُفرطاً على التكنولوجيا، في العادة لا يجد أولئك ضرراً في اختزال المشكلة بالنظام الاقتصادي النيوليبرالي أو الرأسمالي، في المقابل لا يجد

آخرون غصاصة في اختزال كل شيء إلى الدين وموازنة بين حسنات وسيئات دينية. أو لظنهم أننا في عنق الزجاجة واختناقنا الآن سيفضي قريباً إلى جنة تكنولوجية تريحنا من كل الأعمال وتقدم لنا كل ما نشتهي دون استثناء حلم الخلود، كم علينا أن ننتظر للوصول إلى النعيم التقني وهل هناك أدلة على وجود تلك الجنة الدنيوية؟ البعض قد يتفق مع كل ما سيأتي لكنه سيرى أن ما بعد الحداثة والروح العدمية هي السبب، من أتى أولاً، العدمية أم الثورة الصناعية العلمية؟ أخيراً قد يستاء البعض من ضرب الأمثلة على مثالب التكنولوجيا ويَرُدّ في عقله باستحضار محاسنها، لا يُنكر أحدٌ هنا إيجابيات التكنولوجيا، المسألة هي مسألة وضع الحسنات والسيئات في كفتي ميزان ومحاسبة النظام ككل. البعض قد يقول "كل المساوئ من لدن البشرية لا الطبيعة التكنولوجية". للرد على نظرة الحياد التقني هذه أدعو القارئ ليعاين مدى حريته الحقيقية في ظل النظام التكنولوجي، هل نحن أحرار حقاً لنرفض استخدام الهواتف، البريد الإلكتروني، الحواسيب، المركبات؟ السؤال هنا عملي لا نظري. هل حرية الخيار والامتناع عن استخدام هذه الاختراعات ممكنة فردياً وجماعياً؟ نحن مدمنون على التكنولوجيا، رفض الضدية للتقنية ينبع من نشوة الإيجابيات، الحقيقية منها والمزعومة. تماماً كما يرفض المدمن على المشروبات "الضدية للكحولية"، أو يزعم أنه يستطيع تركها وقتما يشاء.

آخرون قد يجدون في المقالة ضالتهم وصياغة أفضل لما يشعرون به بين الفينة والأخرى عندما يجدون أنفسهم تحت رحمة التكنولوجيا والتقنيات المختلفة، عندما يلاحظون مساوئ تكنولوجية تُنذر بالخطر ولشكهم بأن الإحساس بالاختناق ليس لصِغر قطر عنق الزجاجة وإنما لالتفاف أسلاكٍ حول رقبة البشرية جمعاء. لتبدّل عالمهم بسرعة مخيفة، في الخلوة وبالتحديق بأزمة وجودية حقيقية أو ربما مصطنعة. في وظيفة تطفئ الروح أو عند تأمل ما يحيطهم من تقنيات تتكاثر كالأرانب، عند مراجعة خيارات وظيفية وتضحيات شخصية على مذبح التقدم الوظيفي الصناعي.

أدعو للقراءة بما يستطاع إليه سبيلاً من الموضوعية فالهدف لا التبشير بالضدية للتقنية وقبولها تماماً وإنما دعوة للتيقظ إلى الجوانب المظلمة من الأدوات والآليات التي تغمرنا في عصرنا الميكانيكي، وإلى تبعات هذا الانغمار التي تطال كل ما نفعل وكيف نفكر. الخطر هنا ليس فقط شعور بالإزعاج بل خطر الانقراض للبشرية أو مسخها تماماً كي تواكب النظام الصناعي، الخطر مضاعف للثقافات التي لم تلتحق الرَكب التكنولوجي.

من المتهم؟

مصطلح التقنية الذي يستخدمه جاك إلول أشمل من مفهوم التكنولوجيا كمجموعة من آلات واختراعات مادية. *"التقنية في المجتمع التقني هي محصلة الوسائل التي تم التوصل لها بعقلانية والتي تسعى للوصول للكفاءة المطلقة (التي تسمح بها درجة التطور في كل مرحلة زمنية) في جميع ميادين النشاطات البشرية، التقنية الحديثة تختلف تماماً عما سبقها في العصور السابقة"*. هذا التعريف للتقنية هو عام لكن إلول يُسهِب في الفصول المختلفة عن الخصائص التي تحدده في إطارات مختلفة من مناحي الحياة، الإطار الأساسي هو أن التقنيات صارت حضارة هدفها الأساسي التقدم التقني دون أي اعتبار آخر، حضارة صنعتها التقنيات وتهدف إلى تطوير التقنيات فقط، الإنسان فيها عبدٌ للتقنية لا السيد عليها وسيدوم الحال كذلك ما لم يغيّر وجهتها أو وجهته الفكرية إزاءها.

عندما يتحدث كازنسكي عن مساوئ التكنولوجيا فهو يشير إلى التكنولوجيا كنظام موّحد تتكافل أجزاؤه لإنجاز العمل وبالتالي لا معنى من إبقاء الأجزاء "الجيدة" والتخلص من "السيئة" منها، مثلاً العمليات الجراحية "الجيدة" المعقدة تتطلب وصول المجتمع لدرجة معينة من التقدم التكنولوجي "السيء" الذي يتيح هذه العمليات. المثال[1] الذي يضربه جاك إلول كطرفة على لسان صديقه الجراح: عمليات زراعة الأعضاء من ثمار التقدم التكنولوجي الطبي لكن لتنجح هذه العمليات لا بد من أعضاء في حالة جيدة من جثة توفيّ صاحبها للتو، حوادث السيارات هي المصدر الأساسي لأعضاء تُوفِي هذه الشروط، فلو قلّت حوادث السيارات لانخفضت معها إمكانية إجراء هذه العمليات.

يعترف كلاهما بوجود إيجابيات لكنها إيجابيات علينا التخلي عنها في نظر كازنسكي لأن المفسدة تفوقها، وللتعبير عن ذلك يستخدم المثل الإنجليزي "لا تستطيع أن تأكل الكعكة وأن تملكها في الوقت ذاته". ما هو هذا الفساد الذي يفوق الفائدة في الكيان التكنولوجي؟ في نظر كازنسكي ذاك الفساد هو تغوّل التكنولوجيا على حرية الفرد، وخطر إبادة البشرية مباشرة أو تشويه البيئة لدرجة تمنع بقاء أي حياة معقدة على كوكب الأرض، ولو لم يحصل ذلك فإن التكنولوجيا ستعبث بقيم الإنسان وتركيبته الجينية لينمسخ كائناً مختلفاً. لنبدأ بالحرية في الجزء الأول من المقالة.

طحن الحرية بين مسننات التكنولوجيا وتضخم التقنيات

في مقدمة المُترجم لكتاب إلول، يقول جون ويلكنسون أن المواطن في المدينة التقنية سيملك كل ما يشتهيه قلبه، باستثناء شيءٍ واحد، الحرية.

التكنولوجيا تشكل قوة اجتماعية تفوق قوة التطلع للحرية وفقاً لكازنسكي، يشرح هذه النقطة مستعيناً بمثال تطور وسائل النقل الحديثة، ففي مطلعها لم يكن لها ذاك الأثر على الحرية، استطاع الفرد أن يتنقل كيفما شاء وبالسرعة التي يريد. انتشار السيارات لاحقاً لزمه نظام من الرخص والصيانة ، تغيَّر تخطيط المدن ليصعب أو يستحيل على الفرد أن يتنقل على قدميه فقط وحتى عندما يتنقل مشياً فهو مضبوط بطرق مصممة بشكل أساسي للمركبات. لو لم يملك مركبته الخاصة فهو مضطر لركوب المواصلات العامة حيث تقل حريته أكثر مما لو ملك مركبته الخاصة. هذا الاختراع ظهر كخيار يزيد من حرية التنقل لكنه أمسى ضرورةً تنزع من الإنسان حرياته. المثال الذي ضربه في تضارب التكنولوجيا والحرية هو مثل جارين يملكان مساحات متساوية من الأراضي في بادئ الأمر. أحدهما أقوى من الآخر وفي كل حينٍ يطلب قطعة من أرض جاره، الجار الضعيف يساوم ويتنازل شيئاً فشيئاً عن أرضه وسيفقد كل ما ملك في نهاية المطاف. تصوّر الحرية عند كازنسكي يشمل طيف الحريات بأكمله ولا يقتصر على الحريات السياسية فقط كما يتبادر للذهن عندما تُذكر هذه القيمة الجليلة.

المواطن المعاصر وفقاً لكازنسكي مُلزمٌ باتباع شبكة القوانين وضوابط يضعها أشخاص لا صلة له بهم ولا قدرة له على التأثير بقراراتهم، وجود هذه الشبكة حتمية في المجتمع التقني إذ لولاها لعمت الفوضى في نظام الإنتاج وفي المجتمع المتضخم، من الضروري للبيروقراطية أن تُثقل بمثل هذه القواعد لتسيير الأمور لا للؤم البيروقراطيين. مثل هذه القرارات لا تقتصر على معاملات حكومية بليدة وإنما تتضمن أمننا ومصيرنا دون أن يكون لنا قولٌ فيها، حياتنا تعتمد على صحة معايير السلامة في المفاعلات النووية التي يضعها غيرنا، على كم المبيدات التي تُرش على أطعمتنا وفي الهواء دون إذنٍ منا، وظائفنا قد تختفي بسبب قرارات يتخذها اقتصاديون أو أصحاب الشركات، كل هذا يحصل دون قدرتنا الفردية على مجابهة أو الدفاع عن سلامتنا أو الاختيار بأنفسنا. الحرية التي توفرها التكنولوجيا لنا كأفراد تدور في فلك الترفيه وخيارات ثانوية أو معدومة الأهمية فقط، أما ما يهمنا فهو خارج تماماً عن سيطرتنا. ديفيد سكربينا يشرح هذه الفكرة بالصورة الآتية: كل تقدم تكنولوجي يبدو أول ظهوره بأنه خطوة إيجابية، بعد أن نستخدمه تأتي التبعات التي ما كان لنا أن نتوقعها فور ظهوره، في تلك اللحظة يكون الوقت قد فات للتراجع عنه.

يُبرز جاك إلول أوجهاً أخرى لقلة حيلة الرجل المعاصر في المجتمع التقني، مع تداول آلة جديدة قد يفقد العديد وظائفهم ولا يعود لهم حاجة في مكان عملهم، الحلول المطروحة مُذلة للإنسان وتتعارض مع طبيعته. الرأسمالي يُطمئن الناس بأن التكنولوجيا ستفسح مجالات جديدة للعمل، هذا يعني أن من فقدوا وظائفهم عليهم تعلم حرفة جديدة وعليهم الانتظار دون وظيفة في تلك الأثناء (سرقة الزمان من الفرد). أما الشيوعي في النظام السوفيتي فتتكفل الدولة تدريبه على مهنة أخرى لتنقله مكانياً كي يفيد الدولة بطريقة أخرى، أي أن الحل يتطلب إعادة توزيع جغرافية (سرقة المكان من الفرد) وتأهيل وظيفي (يعلّق كازنسكي بأن هذا النوع من الإجبار الوظيفي لا يكترث ما إن كان مهيناً للأفراد). الإنسان في النظام الصناعي يمسي طرداً ليتنقل بهذه الصورة ويتحول لمادة تتقولب كيفما اتفق.

هل من مناص؟ التقنيات وفقاً لإلول ستخترق كل جوانب الحياة الفردية وسيستحيل على الفرد الخروج من المجتمع التقني جسدياً أو روحياً، الفرد لن يجد مكاناً لم تمسسه التقنيات والتكنولوجيا، قطعة أرضٍ لا تمر فيها أسلاك كهرباء أو شوارع، داخل المجتمع التقني لا يستطيع الفرد أن يتجنب الضوابط التقنية بأي طريقة قانونية. إلول يدعي أن أي شخصٍ يظن أنه قادرٌ على الهروب من براثن المجتمع التقني منافق أو فاقدٌ لوعيه.

لكن أليس كل ما سبق جزء من طبيعة الجماعات البشرية، نعم الإنسان سابقاً لم يضطر لاتباع تعليمات قانونية وتقنية لكنه وقع تحت رحمة البيئة والمجتمع، لماذا يبالغ هذان الرجلان بقساوة الظروف التقنية المعاصرة؟

مخاطر اليوم والبارحة

على مستوى الأمن والتأثر بالعوامل المحيطة بنا يُقرّ تيد بأن الرجل البدائي لم يملك حيلة لدفع كل المخاطر البيئية، قد يصاب بمرضٍ لكنه يستطيع تقبل هذا الخطر كجزء من الخطر البيئي (إن لم يعتقد بأنه من صنعِ ساحر) فهو حادث خارج عن يد الجميع ولذا لا لوم على البشر فيه. أما المخاطر التي يتعرض لها الإنسان في يومنا هي مخاطر صنعتها أيدي البشر عبر التكنولوجيا، أضرارها تفوق بأشواط أي مما تعرّض له الإنسان سابقاً. الأخطار ليست صدفاً طبيعية وإنما قرارات لمنظمات ضخمة لا قدرة للفرد على التأثير بها، حتى العامل في تلك المنظمات قد لا يقوَ على إحداث تغييرٍ بأنظمتها فهو كموظفٍ ينصاع لمنطقها الداخلي كما ينصاع الآخرون لمنطقها الخارجي. الرجل البدائي يواجه السباع لكنه ليس معدوم الحيلة أمامهم، أما الآن الإنسان عاري وموثوق الأيدي أمام الحوادث النووية، التسمم الغذائي، التلوث البيئي، الحروب العالمية، الضرائب المتراكمة، اختراق حريته واختفاء مساحته الشخصية، حتى القدرة على خلق هذه المساحة بعيداً عن المجتمع ممنوعة.

الحرب قديمة قدم الإنسان لكن طبيعة الخطر الذي تمثله مختلف تماماً في زمننا، ففي المجتمعات البدائية أو تلك التي سبقت الإنفجار التكنولوجي كانت بين رجالٍ يلوحون أسلحة بيضاء. كان الرجل يحارب ليحمي قبيلته أو يشترك في غارة على قبيلة ثانية، كم الأذى الذي يستطيع أن يوقِعه كفرد وحتى كجماعة لا شيء مقارنة بكم الدمار الذي تسببه الأسلحة المتطورة. طبيعة الحرب في عصرنا تنتج حصيلة

قتلى لا يتخيلها العقل السابق للثورة الصناعية. من ناحية الحرية الشخصية فإن الجندي قد يُجبَر على القتال لأسباب لا يقتنع بها، أو يُخدع ليصدقها وفق تقنيات البروباغندا والتكنولوجيا التي تفسح المجال لغسل الأدمغة الجماعية وبسرعة غير مسبوقة. ثم عندما تنتهي المعارك يعود الجندي بإصابات لا تُقارن بإصابات البارحة، طعنات الرماح والسيوف لا تقارن بفقدان الأضلاع والتشوهات التي قد تصيب الجنود. أضيف إلى ذلك الطائلة النفسية التي تختلف تماماً عما سبق، كان المخضرمون أبطالاً تحترمهم مجتمعاتهم أما اليوم فهم موظفون متقاعدون، وحتى لو انتصروا بقدراتهم التكنولوجية الجبارة فهم يعودون بأعباء نفسية تؤدي للانتحار.

غشاوة البروباغندا وفضاء الإنترنت

لجاك إلول كتابٌ عن البروباغندا من أفضل ما قرأت عن هذا الموضوع من الناحية التحليلية. حاولت بتواضعٍ التطرق بطريقة خيالية إلى هذه التقنية المهمة في عصرنا في رواية "صحراء الواقع" في كتاب "المخيلة: الشظية الأولى" ورواية "فوق الوعي" التي سأنشرها مستقبلاً إن شاء الله. الموضوع يتطلب مقالاتٍ وأبحاثاً برمتها لكنه هنا يستحق الذكر فالبروباغندا إحدى أهم التقنيات التي نتعرض لها بشكلٍ يومي دائم.

يشير إلول إلى عموم البروباغندا وتسربها إلى شتى مناحي الحياة اليومية، في الطريق تلاقيك اليافطات وتستمع إلى الراديو، رسائل مبطنة تُخلَط مع ترفيهك في الأفلام والمسلسلات، زِد إلى ذلك الإعلانات التي تحفّ المواقع على الإنترنت أو تتربع في منتصفها، أو روابط إلى صفحات الويكيبيديا تحت مقاطع اليوتيوب كي يتأكد مُلّاك الموقع من أنك لن ترتكب جرائم فكرية. إلول يقول أن البروباغندا عليها أن تنتشر كما ينتشر الهواء وأن تصبح عنصراً من عناصر الطبيعة، أن تسري بأكثر الطرق سلاسة وخلسة كي يصدق الفرد انعدام البروباغندا، لكنه في الحقيقة غُمِر فيها كسمكة في المياه.

كيف نتفادى هذا؟ بالنسبة لإلول كل ما ليس بتقنية يُقصى في النظام الحالي، في تحدي التقنيات لا معنى من الاتكال على الدين أو الثقافة أو تعليم المجتمع، لا يفل البروباغندا إلا البروباغندا. تيد كازِنسكي يرى أن مواجهة البروباغندا للأنظمة بالبروباغندا ستفشل إلا إن امتلكتَ ما تمتلكه الأنظمة من مليارات الدولارات، لذا على الحركة الثورية ضد التكنولوجيا البحث عن طرقٍ أخرى لتترك بصمتها، أو صدمتها.

يختم ويليام سارجنت كتابه "معركة من أجل العقل" Battle for the Mind بتنويه مهم "مع أن البشر ليسوا كلاباً، عليهم أن يتواضعوا بتذكير أنفسهم كم تتشابه وظائف أدمغتهم وألا يتبجحوا بأنهم أنصاف آلهة". هذه النتيجة العامة في كتاب عن الوسائل في التأثير بالأدمغة بطرق مختلفة من تقني عمل في هذا المجال. الإنسان سابقاً كان يؤمن بالسحر وبالتالي يحاول إتقاء شروره، أما الإنسان المعاصر يظن أن السحر خرافة لن تمسه ناسياً تقنيات التلاعب بالأفكار التي لا تختلف كثيراً عن السحر الأسطوري من حيث أنها ترسم خيالات فوق الواقع في عين الناظر.

وأختم هذا الجزء بالتذكير بأن جاك إلول توفي وتيد كازِنسكي سُجن قبل شيوع الإنترنت، هناك الكثير مما يمكن قوله على صعود الإنترنت وربما سيذكره المؤرخون في المستقبل كأنه ثورة من نسيج الثورة الزراعية والصناعية. لن أطيل بالحديث عنه لكن أود لفت القارئ لطبيعته الغريبة الافتراضية ولأننا أول جيل يعاصره وأننا شهدنا مباشرة تقدماً يعدنا بالتسلية والتواصل أول ظهور مواقع التواصل الاجتماعي وبعد مرور عقدٍ نشعر بأننا في حقل ألغامٍ فكري واجتماعي، أخطبوطات الأخبار وأجهزة الاستخبارات تستغله بطرق بالكاد ندركها والساسة والمفكرون يدعون لتقييد حرياته علانية لأنه لم يتماشى كما يهوون. الإنترنت وخصوصاً مواقع التواصل الاجتماعي تثبت عدة نقاط ذكرها المفكران. طغيان السلبيات على الإيجابيات، استحالة توقع توجه التقدم التقني، وتقييده أخيراً بالضوابط وخنق الحريات. يهمس أحدهم مكرراً الملاحظة من مطلع المقالة: "لكن هذا ما اخترنا فعله بالإنترنت، المشكلة بنا لا بالإنترنت" ربما. لا يجوز أن نلوم السلاح على الجريمة، لكن لو اكتشفنا أننا لسنا جاهزين لاستخدام تقدم تكنولوجي معين، أليست الأولوية لتأخيره أو تغيره كلياً بدلاً من تشويه أنفسنا وتصوراتنا على عجالة لنتماشى معه؟ في الجزء الثاني سنتعرض للمسخ المطلوب منا كبشر كي نواكب الوتيرة المتهورة للتقدم التكنولوجي.

التكنولوجيا كقوة ماسِخة

المَسخ البشري: من تحولٍ بسيط إلى كائنات تكنولوجية وجينية غريبة علينا

قبل التحدث عن المَسِخ بأقصى درجاته التقنية والجينية لنبدأ بالتحولات الطفيفة والتدريجية الخاضعة لطبائعنا، تغيرات تمس وتلوي كل مجالات الحياة. جاك إلول يشير إلى تقلص الزمان والمكان والحركة، اللغة متغيرة بطبيعتها لكن التقنيات تغيرها بطريقة أقسى، حتى الرفاهية لم تنجُ من التكنولوجيا ولن تُستثنَ المفاهيم الاجتماعية من المسخ وفقاً لكازنسكي. العالم سيتوحد في حضارة تقنية ويفقد تنوعه والبيئة سَتُمسخ حتى تنعدم كل أشكال الحياة المعقدة بيولوجياً عليها. احتمالٌ آخر هو نجاة كائن تطور جينياً بطريقة مدروسة ليتأقلم مع العالم المستقبلي، لكنه لن يكون "الإنسان" كما هو الآن. الخطوات الأولى في ذلك الاتجاه نجدها في الصين مع محاولة خلق هجين بين البشر والقرود.

الجانب الزمني في حياتنا تحكمه الساعة والوقت المجرد المرسوم بعقاربها، سابقاً انسجمت وتيرة الحياة مع البيئة أما الآن ننام ونستيقظ ونرتّب نشاطاتنا لا وفق حاجاتنا الجسدية أو البيئة حولنا وإنما على صرير المنبه. عندما نستيقظ نستغرب لأننا لم ننل ما يكفي من الراحة مع أننا نمنا "عدداً كافياً" من الساعات. لا نأكل عندما نجوع بقدر ما نعوّد أجسادنا على أن تجوع عندما يسمح الوقت لنا بالأكل (ساعة الغداء عند العمل). في آخر الليل بدلاً من أن ننام فور استلقائنا نمضي ساعاتٍ نتقلب في السرير.

نُجزِل بالعادة الشكر لوسائل النقل المتطورة التي تطوي المسافات بسرعة خاطفة ونسبّح عندما نقارنها ببطء الدواب التي تنقّل عليها الأجداد. جاك إلول يشير إلى المفارقة الحاصلة على أرض الواقع بين المسافات التي تلاشت أمام التكنولوجيا وبين المساحات المتقلصة التي تتفضل علينا التكنولوجيا بالعيش فيها. أولاً يذكرنا بأن عدد الذين يسافرون بالطيارات قليلٌ مقارنة بالأغلبية في أي مكان، وأن المرء يُحشر معظم حياته بسبب الاكتظاظ السكاني والطبيعة العمرانية للمجتمعات الصناعية. سابقاً كانت هناك مساحاتٌ شاسعة تحيط الإنسان ويرى فيها امتداداً لا متناهياً -بنظره- للطبيعة، أما الآن نتراكم في عُلبٍ إسمنتية للسكن وأخرى فولاذية أثناء تنقلنا.

أما فيما يتعلق بالجانب اللغوي إلول يرى مسخ اللغة بطريقتين، عبر انعدام الحاجة عند بعض أفرقة العمل بدرجة متقدمة من التواصل اللغوي كي تتم المهمات، الطريقة الثانية تفرّق بين أصحاب اللغة ذاتها بسبب حواجز التخصصات، لكل تخصص لغة اصطلاحية تتعقد مع الزمن وتُصعّب على أصحاب التخصصات المختلفة التواصل فيما بينهم بما يخص وظائفهم. لاحظ النقاشات بين أصحاب التخصصات المختلفة، عند الخوض في موضوع العمل يضيع جزء من النقاش فقط لشرح تفاصيل العمل وتبسيطها كي تصل العبرة أو النكتة، كما لو أنها ترجمة بين لغات مختلفة.

الترفيه كغذاء روح المسوخ

لم يدرك كازنسكي مسلسل بلاك ميرور ليخبرنا عن رأيه فيه، لكنني سأتطوع وأدرجه تحت ما سبق من الخدع النفسية للنظام التكنولوجي، بدلاً من التحذير من التقدم التكنولوجي السافر بجدية يُعمل على استغلال إحساسنا بالغربة وتوجسنا من مستقبل سوداوي لنُعطى صورة مبالغة من أرقنا كي ننام قريري الأعين ونصحو باكراً، وفق المنبه، لنكمل عملنا المطلوب كي تستمر العجلة التكنولوجية بالدوران. الخدعة ببساطة هي أن الصورة السوداوية تُقدّم لنا كترفيه لا كتحذير حقيقي. في العالم التكنولوجي لا منابر للتوجيه وإنما موعظات بقوالب ترفيهية تدغدغ طيف مشاعرنا ومتطلباتنا النفسية، وعندما تعتمد أجزاء من نفسياتنا على هذه المتنفسات ننزعج من انسدادها.

لو أخذنا خطوة للوراء نرى أن الطرح بكامله يتعلق بماهية الترفيه المرئي دون أن نتساءل عن ضرورة الترفيه بهذه الصورة أصلاً أو الحاجة لهذه الدرجة من الإشباع منه. الكاتبان يشيران إلى ضرورة الترفيه للهرب الذهني في عصرنا، كازنسكي يرى أن الترفيه من إحدى الأدوات النفسية للنظام التكنولوجي، فهو يفسح المجال لهرب الفرد من واقعه البائس ومن الحالات النفسية العصية كالأرق والضغط والإحباط، يذكرنا بأن الإنسان سابقاً مع انسجامه مع ذاته وطبيعته لم يجد مانعاً من الجلوس لساعات دون أن يُشغل ذهنه أو ذراعيه بأي شيء. الإنسان المعاصر عليه أن يبقى منشغلاً ومُرفها دون انقطاع وإلا يأكله الملل ولا يذوق راحة في وقت راحته. ما السر في ذلك؟ هل نهرب من خوائنا في خلوتنا؟

يتفكك المجتمع في جدله حول ترفيهه وتتفكك كل القيم المميزة للمجتمع، ليحل محلها قيم لمجتمع تقني لا يكترث بأي رابطة أو علاقة أو قيمة لا تساعد في كفاءة الإنتاج والتنظيم البارد. وعلينا أن نتنبه لأن القيم التقنية في صورتها الحالية ليست قيماً غربية تماماً، فهي تعمل

على تحويل الدول الغربية بطرقٍ أخرى لا مجال للحديث عنها الآن، فقط أريد التنويه لأن الصراع ضد التكنولوجيا ليس صراعاً بين الشرق (الأوسط) والغرب بالضرورة.

إحدى القيم التكنولوجية الأساسية هي حرمة التوقف عن الإنتاج والتقدم، لا نتوقف ونسأل أنفسنا نحو ماذا نتقدم؟ لماذا يجب أن نتسرع في الانتاج والاختراعات؟ مبدأ الانتاج من أجل الانتاج والتقدم من أجل التقدم أصبح مسلّمة في عصرنا. فكرة توقف صناعة الأفلام لعامٍ مثلاً لا تخطر في بال أحد وكذلك فكرة تمهل الشركات في إصدار موديلاتٍ جديدة من منتجاتها، بالطبع ينتقد البعض ذلك مستاءين من جشع الشركات لكن هب لو أن ذلك حصل بالمجان فهل سيكترثون بحيثيات الإسراف التقني بحد ذاته؟

الفنون تخضع لمتطلبات الأسواق وشروط شركات الإنتاج، لا تكفي قيمة الإبداع الذاتية بل على المبدع أن يستعين بكهنة التسويق، وإن لم يجني المال فلا وجود لجهات تكفل المُبدع كما فعلت الكنيسة مع الرسامين أو تهدي الفنان العطايا كما فعل السلاطين مع الشعراء. وإن اهتمت الدولة بهم اليوم فذلك لأهداف البروباغندا أي لتسيير الشعب وفق تقنيات نفسية لا من أجل القيمة الفنية. العلوم الطبيعية مقدسة لأنها زوجة التقدم التكنولوجي أما العلوم الإنسانية فعليها التنكر لطبيعتها بارتداء ثوب الإحصائيات والتجارب والرياضيات واستخدام اصطلاحات جافة كالنظريات كي تحافظ على حرمتها. الترفيه يختلط مع السياسية ونفقد القدرة على التمييز بين زعماء دول جادين وبين شخصيات المشاهير المبتذلة الزائفة، ترمب خير مثالٍ على ذلك.

الهواتف المتنقلة والإنترنت يمسخان العلاقات المباشرة لنكتفي بأنصاف علاقات. عدا عن كل هذا هناك المَسخُ المباشر لأجسادنا والمسخ الجماعي للحضارات.

ذاكرة الجسد التقني

أما بما يتعلق بأجسادنا وتبعات التطور التكنولوجي (الطبي والجيني) عليها، يذكر كازنسكي أكثر من طريقة يعود هذا التطور بالضرر علينا على المدى القريب والبعيد: مع استخدام الأدوية تبقى جينات ضعيفة وتتكاثر مما يرسخ الحاجة إلى الأدوية. المضادات الحيوية تقوّي مع الزمن مناعة البكتيريا مما يُصعّب قتالها. أضف إلى ذلك شبهات الأدوية النفسية، عندما يلتهي طفلٌ صغير ولا يلتزم الجلوس كالسجين في غرفة الصف لا نفكر بعفوية طفولته بل بخطورة عدم انخراطه في مصنع التقنيين، نشخصه بمرض فرط النشاط ونجبره على أخذ الحبوب لنصنع منه برغياً مطيعاً. عندما يكبر ويذهب إلى عملٍ يُشعره بالغربة ويخنقه يستنجد بتقني نفسي، لا بصديقه فصديقه أيضاً يختنق في وظيفته، ولا يتضرع إلى ربه فالكتب المقدسة لم تذكر علم النفس بصورته الحديثة والإنسان المعاصر العبقري أذكى من أن يعتمد على الصلاة والعلاقات المجتمعية القوية والتصالح مع طبيعته ليدحر هذه الأعباء النفسية. عليه الإتكال على التقني النفسي، يسرد قصة حياته وأسراره لشخصٍ غريب مقابل المال، يشخصه الطبيب ولعله يصِف له الحبوب. نسمع أصواتاً يتقدمها أصوات الأطباء النفسيين بأهمية رفض الوصمة السيئة لعيادة الطبيب النفسي، تزامن ظهور هذا الشق من الطب مع بروز أولوية الكفاءة التقنية وانتشار الحياة الصناعية المعاصرة يستحق التفكر. ربما الحل الأنجع هو بترتيب الأولويات لا بتقديم التنازلات الفردية حتى لا يبقَ منا أي خِلقة أو عادة أو حاجة إلا وتعتمد على اختراع وتقنية نفسية ودواء.

على سيرة التصوّر المستقبلي لعالم طغت فيه التكنولوجيا يمكن الإشارة إلى أعمال مثل "عالم شجاع جديد" لألدوس هكسلي و"رجل تحت الصفر" لمصطفى محمود، كلاهما يحتويان على حبوب خيالية "سوما، سعادول" وهي أدوية، أو بالأحرى مخدرات قانونية مضادة للاكتئاب والقلق مُفرِزة لحالة من السعادة تأخذها الشخصيات الروائية لتبقى في حالة من بهجة دائمة وتهرب من أي شيء يؤرقها.

كازنسكي يحذرنا من التعديلات الجينية لاستحالة وضع قواعد أخلاقية تنظمها. القواعد والتنظيمات هذه ستقع في يد جهة معينة وبالتالي ستُطَبِق هذه الجهة مفاهيمها الأخلاقية على المجتمع برمته بطريقة تحوّله جوهرياً (تعديل تركيباتنا الجينية). كما يركز على الحرية التي ستنسحق أمام إجبار الحكومة تعديلاتها الجينية علينا وعلى أفراد عائلاتنا. كازنسكي يشير إلى أن الطريق للوصول إلى عالمٍ تُقبل فيه التعديلات الجينية سيُعبّد بالنوايا الحسنة، من منا يقول لا لتعديلات تمسح الأمراض والعلل الجينية الجسدية والنفسية؟ أضف إلى ذلك أن الأخلاق والتصرفات في العالم التقني قد تُنسب للجينات وبالتالي قد يقول قائل أن التعديل الجيني سيمحو الشر والعنصرية، من سيجرؤ على رفض ذلك؟ يجزم كازنسكي بأن التلاعب الجيني سيُستخدم بلا هوادة والهدف الأساسي منه حتماً سيكون إرضاء حاجات الصناعة والتكنولوجيا لا الإنسان. كل ما ذكرته بخصوص التعديل الجيني يمكن تكراره تحت بند التعديل الآلي للجسد، ما يُبشر به إلون مَسك من دمج الإنسان مع الآلة يخضع للمخاطر السابقة إضافة إلى مخاطر تتميز بها مثل تكاثر الآلات المكررة لذاتها أو وصول الآلات بوعيها الصناعي لما يكفي من استقلال عن البشرية لنفقد السيطرة عليها وربما لنخضع لها، مخاطر الذكاء الاصطناعي المستقل يحذر منه مَسك بنفسه، لكنه لسبب ما يفقد فطنته هذه عندما يكد في عمله على دمجنا مع الآلات. يُمكن الرد بأن هذه سُنّة الطبيعة، الإنسان في حالة تطورٍ دائم، وما ساعده للنجاة والهيمنة هو القدرة الجبارة على التأقلم مع ظروفه، إلول لا ينفي تلك القدرة لكنه يقول بأن الناتج من التأقلم قد لا يكون بالضرورة ناتجاً نصبو إليه.

ذكرنا نظرتهم للتكنولوجيا والتقنيات كمكونات من كيانٍ يمسخ حياة الإنسان بكل تفاصيلها ويجرده من بشريته بخطوات متسارعة. كيف وصلنا لهذه المرحلة ولماذا لا يجوز تشبيه تقنيات يومنا بتقنياتٍ سابقة واعتبار ما يحصل تطور طبيعي للتقنيات كما كان الحال دوماً؟ لنرى ماذا يقول إلول عن تاريخ التقنيات نفياً لفكرة سير التاريخ على نسقٍ واحد ويفند فكرة وجودنا في مرحلة متطورة زمنياً فقط، مؤكداً أن التغيّر نوعي وقِيَمي، يمكن أن نقول أن مسخاً للقيم فتح المجال لتوالي التحولات المذكورة.

التكنولوجيا كقيمة: أنا ربتكم العليا

لا يدّعي الكاتبان أن الإنسان سقط من جنة بسبب الثورة الصناعية، لم تتغير النفوس فجأة مما دفع عجلة التقدم للتسارع الذي نشهده الآن. تيد كازنسكي خصص مقالةً لتفنيد آراء الأناركيين البدائيين الطوبائية في وصف الإنسان البدائي وتلكم القبائل. بالنسبة لجاك إلول فإن نظرة الإنسان للتقنيات وتطبيقاتها وقيمه العليا هي ما اختلفت، عند الإغريق لم تتزاوج التطبيقات مع العلوم كما الحال في عصرنا، الأولوية كانت للتفكر المجرد والتركيز على الفضائل مما قلل من قيمة التطبيق العملي للعلوم في نظرهم، وعند حاجتهم للتطبيقات استعانوا بالشرق وكذلك فعلت روما لاحقاً. الرومان آثروا التركيز على التقنيات الاجتماعية والقانونية لا التطبيقية، التناغم المجتمعي كان العنصر الأهم في تطويرهم لهذه التقنيات ولم يكن اهتمامهم بالتقنية من أجل التقنية ذاتها. العصور الوسطى في أوروبا بروحها المسيحية تخلصت من التقنيات الرومانية، وبالنظر إلى زوال الدنيا ومع انتظار الآخرة لم يتجه الفكر نحو استغلال الموارد الطبيعية بالشره المعاصر. لكن إلول لا يغفل أثر المسيحية في إزالة القدسية عن الطبيعة باعتبارها مخلوقاً لا مهجعاً للآلهة والأرواح، قدسية نراها في معظم الديانات الوثنية. التقنيات سابقاً خضعت للتساؤل الديني، التقدم العلمي و در المال لم يكونا سببين كافيين لاعتناق أي تقنية أو اختراع، السؤال الأهم عقائدياً عندهم هو عرضها على فهمهم للدين. في هذا السياق يمكن التنويه لضرورة دراسة التطور التقني والتكنولوجي في التاريخ الإسلامي والعلاقة بينه وبين أحوال الخلافة والطوائف والفقه المعاصر للتطورات تلك.

وفقاً لإلول فإن الوتيرة المتروية للتطورات التكنولوجية سابقاً لها أسبابٌ عامة أيضاً، كانت التكنولوجيا تابعة للثقافة وجزء من نسيج العناصر المُشكل للحضارات. كان التطور التكنولوجي خاضعاً للإنسان لا العكس، فهو ينتشر عندما يتأقلم المجتمع معه ويسير بانتظار عوامل أخرى، أما الآن أصبح التقدم هدفاً لا غاية، والتكنولوجيا تتطور من أجل التكنولوجيا دون أي قيمٍ اجتماعية أو أخلاقية أو دينية تدوس فراملها. كما أن التصاميم للتقنيات المختلفة كانت لها اعتبارات نستهجنها اليوم فهي لا تبتغي الكفاءة فقط وتُخضع كل الاعتبارات الأخرى لذلك، المثال الذي يضربه إلول على ذلك تنوّع تصاميم نفس الأداة، السيف السويسري في القرن السادس عشر، التصاميم اختلفت لأسباب صناعية لكنها أيضاً تبعت توجهات أستطيقية. أما الجمال في يومنا هو الكفاءة، لا داعي لاعتبارات جمالية على أية حال فالتقنيات النفسية تُقنع الناس بما هو جميل وفق ما تهوى الجهات المختصة والحاجات الصناعية، وإن لم تقنعها فهي تجبرنا بتحديد ما هو متاح في السوق. أي إضافة تُقلل من كفاءة المنتج لن تصل مخطط التصميم الأخير ولن تمر بوفرة فوق خطوط الإنتاج في المصانع، قباحة المركبة التي أعلن عنها مَسك خير مثالٍ على وضع الكفاءة فوق كل حساب، أو على الأقل هي دليل على قباحة الأستطيقية التكنولوجية.

بما أن التقنيات كانت تقودها الثقافة لا العكس يتوصل إلول إلى أسبابٍ أخرى لبطء انتشار التقنيات عند السلف، المنتجات التكنولوجية لم تكن قطعاً منعزلة عن محيطها المجتمعي لذلك لا يمكن حملها ونسخها في الثقافات المختلفة بسهولة. حتى لو انتقلت فيزيائياً بسرعة، المطبعة الأولى في الخلافة العثمانية وصلت بعد سبعين عاماً تقريباً بعد عمل مطبعة غوتنبرغ، لكنها استخدمت بدرجة أولى من اليهود والمسيحيين، أما العثمانيون فهم لأسباب عدة لم يهتموا بهذا التطبيق وبنشره كما نهتم اليوم بتداول أي تكنولوجيا تصلنا. البعض يعيد السبب لأثرها الاقتصادي على العاملين بمجال نسخ الكتب حينذاك، بما أن المجتمع لم يكن صناعياً يولّي التقدم على قطع الأرزاق فلم يُعمل بها. سببٌ آخر يُذكَر هو رفض رجال الدين لهذا الاختراع، مما يؤكد نظرة إلول أن التقدم التقني لم يكن كما هو اليوم، القيم اختلفت، الاختلاف بيننا وبين من سبقنا لا يعود لقصور عقلي عندهم كما أقنع المستعمر نفسه وهو يجبر الجميع على "التحضّر" أو كما نقنع أنفسنا اليوم لتبجيلنا للتكنولوجيا.

صورة أخرى لخضوع التقنية لثقافة المجتمع لا العكس هو أن سقوط حضارة عنى سابقاً اندثار تقنياتها معها (ما زلنا نحاول فهم كيف تم بناء الأهرامات في زمن تليد) أما في القرن الماضي نستطيع تتبع استعارة التطبيقات من الأعداء المباشرين، الرايخ الثالث تعلّم أهمية البروباغندا من خسارة الحرب العالمية الأولى، الولايات المتحدة جلبت العلماء النازيين بعد الحرب العالمية الثانية، في الحرب الباردة انتشل الاتحاد السوفيتي عبر الجواسيس أسراراً نووية. هذا "التعاون" التقني لم يكن بتلك الأهمية في الحضارات السابقة بل نجد نوايا محو المهزوم تماماً، مع علومه وتقنياته في بعض الأحيان (العهد القديم يدعو إلى إبادات جماعية كإبادة العمالقة، المغول لوّنوا نهر دجلة بحبر الكتب في دار الحكمة) وحتى مع انعدام تلك النية لا تكترث الثقافة بنقل منتوج الثقافات الثانية كما تهتم به القوى العظمى الآن.

ماذا عن هذه القوى العظمى أو ما تبقى منها؟ هل هي من حركت التقنيات من أجل مصالحها، أم أن التقنيات توّجه هذه القوى لتصبح قوة تقنية واحدة؟ وهل من الممكن تسمية الدول المدنية المعاصرة المختلفة حضارات مختلفة على أية حال أم أنها أقاليم من حضارة واحدة، حضارة صناعية تفرش الكوكب بأكمله؟

الثورة كاستحالة تقنية

عولمة تكنولوجية: حضارة كوكبية واحدة

يستشهد كازنسكي بما يتوفر لديه من مصادر في السجن، أحدها الموسوعة البريطانية (بريتانيكا)، ويقتبس منها التالي للإشارة إلى درجة اشتباك الدول اقتصادياً وتأثر التغيرات الخارجية فيها "الدولة التي تشترك بدرجة عالية في التجارة العالمية قد سلّمت رهائنَ للحظ، إذ يعتمد جزء من صناعاتها على أسواق التصدير للحصول على الدخل والوظائف، أي انقطاع في الأسواق الخارجية (ناتج عن كساد، أو فرض التعرفة في الدول الأخرى، أو عدة من التغيرات المحتملة كوقوع الحرب) سيترك أثراً حاداً جاداً، أثرٌ خارج سيطرة الحكومة المحلية فهي لن تتمكن من التدخل لتبديل الأحوال. وكذلك قد يعتمد جزء آخر من الصناعة المحلية على مجرى واردات كالمواد الخام والنفط والطاقة. أي انقطاع في هذه الواردات سيشكل عواقب جسيمة. التهديد المبهم الضمني في هذه الاحتمالات في العادة يُنتج تطلعاً للاكتفاء الذاتي، وحياة تخلو من الاعتماد على مخاطر العالم الخارجي ..... هناك اتفاق عام بأن الدول الحديثة، مهما كانت غنية ومتعددة الموارد، هي دول غير قادرة على الاكتفاء الذاتي"

أول ما يتبادر إلى الذهن هو صفقة الغاز مع الكيان الصهيوني والتي سترهن ما سبق بالإضافة إلى الأمن القومي عند كيانٍ معروف بخيانة العهود وعداوته لشعوب بلاد الشام. هذا التشابك الاقتصادي لا يمكن الوصول إليه دون الطبيعة التقنية لعالمنا، والتفسير الاقتصادي (والذي سأتطرق إليه بعد قليل) لا يكفي في نظر إلول، ففي العالم -حين كتب كتاب المجتمع التقني- قُطبان تقنيان، ما بينهما دولٌ تسعى للتخلص من الاستعمار المباشر لكنها تضطر للخضوع إلى أحد الأقطاب تقنياً، ولن تمانع هذه الأقطاب من التَفضُّل على هذه الدول "المستقلة" بالدعم. لا يختلف الوضع كثيراً في يومنا من الناحية التحليلية، ما اختلف فقط هو الأقطاب التقنية، ظهور الصين كندٍ للغرب ونزاعاتهم على "بناء" أفريقيا. توفير الكيان الصهيوني خدمات للعديد من الحكومات في الأمن السيبراني، تعني هذه الكلمة التجسس على المواطنين.

التحولات التقنية لا تتمم مكارم الأخلاق، هي لا تصب القيم القديمة في أوعية متطورة بل تحطم كل ما سبقها من قيم ومعتقدات ثقافية. الأمثلة التي يضربها إلول هو تلاشي تقديس الإمبراطور الياباني بعد علمنة الحلفاء لليابان بعد خسارتها وضربها بالقنابل النووية، أو الضغوط التي تتعرض لها البوذية في التبت والصين بفعل الحكومة الشيوعية. إلول لا يدّعي أن الحضارة التقنية ستجعل العالم ملحداً، لكن الأديان أو ما تبقى منها ستُمسخ لتصبح ديانات تخدم التطور التكنولوجي والتقني. يمكننا أن نرى صدى ذلك بما يتعلق بالإسلام، الحرب العالمية الأولى وما تلاها بقليل شهد سقوط الخلافة العثمانية، تدهور الإسلام كقيمة عليا لم يتوقف عند ذاك الحد، التقنية الاقتصادية المتمثلة بالبنوك الدولية والقروض الربوية في تضارب مؤلم مع تعاليم الإسلام. لكنها أحد أذرع الحضارة التقنية العالمية التي لوت ذراع المسلمين، وكما ذكرنا لم يتخلَّ المسلمون عن الدين كله لكنهم في طور تحويل دينهم إلى دينٍ علماني يدفع أبناؤه الفوائد المتراكمة وهم صاغرون ويعملون بنفس التقنيات الاقتصادية فيما بينهم بتسميتها بغير مسمياتها (المرابحة).

كازنسكي يضرب مثلاً بين تماس التكنولوجيا مع قبائل اليور يورونت الأسترالية التي عاشت -بالعرف التقني- في العصر الحجري. في بداية القرن الماضي دخل عليها اختراع متقدم تكنولوجياً ألا وهو الفأس الفولاذي، إذ تم استبداله بالفأس الحجري بنيّة صادقة في دفعهم إلى "التحضر". لكن الفأس الحجري في ثقافة بدائية كهذه حمل معاني اجتماعية لا عملية فقط، لم ينظروا إليه كما ننظر إلى الأدوات التي تُصنّع بالجملة ولا نرى فيها أكثر من تصميم تقني وسبيل لغاية عملية. الفأس الحجري ارتبط بميتافيزيقيا القبيلة، عليه تقوم العلاقات الاجتماعية بين أفراد العائلة وللحصول عليه نشأت خطوط تجارة محددة واستدعت من الرجل مهارات معينة، وما قد نجده عجيباً بفكرنا التقني هو أن الفأس الحجري لم يمتلك تلك القيمة العملية الكبيرة عندهم فهو يدوم لفترة أطول من الحجارة التي صُنع منها بقليل فقط. النتيجة من التبادل التقني البسيط في نظرنا كانت -بالإضافة إلى عوامل اختلاط أخرى- كارثية، العلاقة القائمة على تفوق الرجل في العائلة لحمله الفأس تقلصت لأن أبناءه وزوجته أصبح بإمكانهم الحصول على الفؤوس من الرجل الأبيض. لم يعد هناك حاجة لخطوط التجارة إذ توفّرت هذه الأداة الحديثة. لم تعد علاقة الرجل بالفأس علاقة اعتماد على النفس إذ كان هو صانعه، بل أصبح خاضعاً للرجل الأبيض، هو وجميع أفراد القبيلة. دخول الفأس الفولاذي لم يكن ماسِخاً فقط بسبب نوعه بل بسبب الكم الذي توافر فيه فجأة. تتابعت الآثار الميتافيزيقية بعد ذلك، الأساطير في القبيلة قالت بثبات العالم الطبيعي كما خُلِق وربطت كل ما فيه بالطوطمات، الفأس الفولاذي لم يكن موجوداً سابقاً ولم يكن هناك تأويل ديني لوجوده. قِس على ذلك الدخول المفاجئ لأي أداة أو تقنية إلى ثقافة لم تبتدعها. وهذا بدرجات متباينة ما يحصل وبتسارع في العالم كلّه.

على الإنترنت نلاحظ الانعدام الحَرفي -افتراضياً- للحدود الجغرافية فيه، الثقافات تختلط بمباشرة يستحيل أن نجد لها مثيلاً تاريخي، هذا الاختلاط له تبعات لم ندركها ومن الصعب التنبؤ بها حالياً. وعلينا ألا نقع في فخ حالمٍ بالحلول السلمية في مناظرات بدلاً من حروب، لسنا

في فضاءٍ طبيعي وإنما في عالمٍ تملكه شركات ومزودو خدمات الإنترنت وما نراه قد يتم التلاعب فيه كما أثبتت فضيحة كامبريدج أناليتكا، أو كما انكشف مؤخراً من اختراق إسرائيلي لصفحات يمينية غربية لتحرض على المسلمين. تبعات هذا الاختراق ستتفاوت بين الثقافات المختلفة، لكن من المنطقي توقع ذوبان الثقافات في الدول العربية بسرعة أكبر من الثقافات المختلفة بسبب اختفاء الحاجز اللغوي أيضاً لا الجغرافي فحسب، بالإضافة إلى الضيعان شبه الكامل في الهوية عند الشعوب التي تسمي نفسها بالشعوب العربية.

إلول دون أن يشهد صعود الإنترنت وانتشاره كالهواء أشار إلى إمكانية استخدام التقنيات النفسية للوصول إلى "كفاءة نفسية". مَسحُ كل الفوارق بين البشر، لا لدواعٍ إنسانية، بل لأن كلَّ ما هو خارج عن الضرورة التقنية من خصائص وعادات لا محل له في عالمنا. عندما تنجح التقنيات النفسية بالتعاون مع تلك المادية في مسح هذه الفروق وتوحيد البشرية لنصبح وفق وصفه "طوبة من التضامن اللاعقلاني".

الاقتصاد والتكنولوجيا

جاك إلول خصص في كتابه فصلاً كاملاً عن التقنيات الاقتصادية وإحدى النتائج التي توصل لها حاجة هذه التقنيات لتسطيح الإنسان لبُعده الاقتصادي فقط كي يماثل النظريات الاقتصادية والإحصائية، الوضع المادي هو الهمّ الوحيد والبُعد الأول والأخير، أما سائر الأبعاد كالثقافة والفنون والروحانية والأخلاق مجرد نكت. نقد إلول لتمجيد البعد المالي ليس نقداً موجهاً للرأسمالية فقط، فهو يشير إلى أن اختزالَ الأفراد إلى بعد مالي اختزالٌ يتفق عليه البرجوازيون والشيوعيون. مبعث الغُربة التي تشعر بها البروليتاريا ليس خضوعها اقتصادياً للبرجوازية فحسب، بل يضاف إليه تحوّل الفرد في وظيفته في النظام الصناعي إلى شبه آلة، ويتأسف إلول لأن هذه الغربة بدلاً من أن تُشعل الروح الثورية لتتساءل عن ضرورة رفعة الاقتصاد في حسابات الفرد توجهت لمقارعة البرجوازية في السعي وراء جني الأموال. هذا التوجه دفعهم لاستخدام أداة الاتحادات العمالية لتقوم بدورها باستنزاف الإرادة الثورية في التركيز على إعطاء العمال المزيد من المال والظروف المريحة في الوظيفة.

تتوجه أصابع الاتهام عند وقوع الدواهي البيئية إلى الشركات وأصحاب رؤوس المال والرأسمالية ككل. لا ضير في ذلك لو اكتملت قائمة الشركاء بالجريمة. تتفق النظريات الاقتصادية على ضرورة استغلال التكنولوجيا، ويتفق الكاتبان على هذه النقطة لكنهما لا يفعلان ذلك للوقوف على مسافة واحدة من الاتجاهين والظهور بمظهر الحكيم المحايد، النقطة الأساسية من طرح المفكرَين هو مركزية خطر التقنية والتكنولوجيا وأن اللوم بالدرجة الأولى يجب أن يتوجه إلى هذه المركزية لا إلى الاقتصاد، وأن الاقتصاد يحاول استغلال التكنولوجيا بطرق مختلفة.

كازِنسكي يدعي أن النظام التكنولوجي الصناعي لا يخدم حاجات الإنسان، ما يقوم به هذا النظام هو العكس تماماً، قولبة سلوكيات الإنسان كي تخدم المتطلبات الصناعية، اللوم ليس على أيدولوجيا سياسية أو اجتماعية، ولا على الرأسمالية أو الاشتراكية، اللوم على النظام التكنولوجي. لا ينفي كازِنسكي تلبية هذا النظام لبعض حاجات الإنسان لكنه يرى أنها تلبية مقرونة بتلبية حاجات التكنولوجيا، مثلاً قد يشعر العامل بالاكتئاب، الحل لذلك هو حل في حدود إعادته إلى العمل، فلو اكتأب عدد كبير من العمال والموظفين لأقفرت المصانع والشركات. إلول يستشهد بنتيجة روبنستاين بأن نقد الشيوعية للتقنيات المستخدمة في الرأسمالية ينطلق من كبح الرأسمالية لتلك التقنيات إن لم تولّد هذه التقنيات أي مربح، هذا النقد يعني في المقابل أن الشيوعية ستطلق العنان للتقنيات وتسمح لها بالتطور بوتيرة أسرع من تلك التي تسمح لها الرأسمالية. ثم يذكر تحليل ثورستين فيلبين القائل بوجود صراع بين العمل الرأسمالي والتطور التكنولوجي، فالتطور التكنولوجي في الرأسمالية يتوجه للربح لا لذاته، ولو تسارعت وتيرة تطور الآلات قد تمنع السرعةُ الرأسمالي من الربح في الوقت بين استخدام الآلة وما تلاها من آلة ذو كفاءة أعلى وسعرٍ أغلى.

الشيوعية في نظر إلول في صف التكنولوجيا، في بدايات التطور الصناعي المتسارع شعر العامل بثقل الآلة وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت متطلبات العمال قمع الآلة. العمال في ذلك القرن وفقاً لإلول ذاقوا مرارة التكنولوجيا دون الحصول على نتائجها المُسكِرة بعد، في القرن التاسع عشر غيّر كارل ماركس نظرة العامل للآلات التي زاحمته، المشكلة كما قدمها للعمال ليست بالآلة وإنما بأرباب العمل.

"رب ضارة نافعة" يقول كازِنسكي -بتصرّف- بما يخص توحد الحضارة التقنية وتعقيدها، الترابط الاقتصادي سيضر البيئة على المدى القصير لكن ربما سيسهّل مهمة الثورة ضد التكنولوجيا لأن سقوط اقتصاد إحدى الدول الصناعية الكبرى قد يجر معه دمار الاقتصاد في كل الدول الصناعية. كما أنه يعتقد أن توجيه ضربة مدروسة لنظام معقد أسهل من تدمير بدائي قادر على ترميم نفسه بسرعة، جسد الإنسان مثلاً آية في التعقيد لكنه يتوقف عن العمل لو فشلت أعضاء مركزية فلا داعي لتوجيه ضربات لكامل الجسد كي تقتله.

في كتابه الثاني "الثورة ضد التكنولوجيا: كيف ولماذا" يستشهد كازِنسكي بعدة أمثلة تاريخية كي يضع نظرياً من وراء القضبان بعض الأسس لثورة مضادة للتكنولوجيا (هدفه عندما صنع وأرسل المتفجرات). ولا يتحرج من الاعتبار من البلشفية لنجاحها في قلب النظام مُذكراً في نهاية الكتاب أن الشيوعيين ك"محبي التكنولوجيا" خصومٌ له ولكل من يؤمن بأن التكنولوجيا المعاصرة تدفع العالم إلى الهاوية.

ثورة ضد التكنولوجيا، وضد أي شيء

التكنولوجيا غيّرت وجه العلاقات بين الأفراد وبين الطبقات وبين الفرد والدولة وبين الإنسان والطبيعة، ذكرنا القليل عن تغيرها لطبيعة الحروب لذا من المنطقي توقع تغيّر طبيعة الثورات أيضاً. النتيجة الأخطر التي قد نصل إليها لو صحّت نظرة المفكريَن لقدرات التقنيات والتكنولوجيا على التضخم وتشويه كل شيء هي أن الثورة بحد ذاتها قد تصبح *استحالة تقنية*، قد تصدق نية الحشود في الثورة لكنها ستبقى عارية ببشريتها أمام أسلحة الجيوش النظامية، كما أن تقنيات وتكنولوجيا تفريق الحشود تتطور لتصبح أقل عنفاً مما يُسهّل أخلاقياً ضغط الزناد. الشرطي **قد** يتردد في إطلاق النار على أبناء شعبه لكن مسدس صوتٍ أو قنبلة دخان أو ضخ مياه مُركز ليس فتّاكاً ولن يؤرق الشرطي المُتعذر عن إطلاق النار.

الأسوأ من ذلك هو تحوّل الميول الثورية والاحتجاجية إلى أداة في يد النظام نفسه، السياسي في نظري والتقني في نظر كازنسكي. فهو يطلق على هذا الاحتمال "خدعة النظام الأدهى" ويلخصها كالتالي: النظام التكنولوجي يحتاج لإجراء تغيرات اجتماعية جذرية لمجاراة التقدم التكنولوجي، في الوقت ذاته تدفع الظروف التقنية الأفراد للشعور بالإحباط مما يدفعهم للثورة، يستغل النظام الدوافع الثورية كي يطبّق التغيرات التي تناسب التقدم التكنولوجي ضد العادات المجتمعية التي لا تناسبه، بذلك يجد الثوريون فسحة لإطلاق ثوريتهم لكنها فسحة لا تعادي النظام بل تفيده. الحنق من هذه التغيرات الاجتماعية لا تلوم النظام التقني وإنما تصب غضبها على المتطرفين المترأسين لهذه التغيرات.

في مواضع أخرى يذكر أمثلة على ذلك، ينتقد المحافظون التغيرات الاجتماعية التي تحطم التقاليد وفي الوقت ذاته يشجعون التقدم التكنولوجي، دون أن يلاحظوا أن التقدم التكنولوجي يتطلب تحطيم كل الأواصر الاجتماعية لأنه يتطلب أفراداً معزولين يتم نقلهم وفق المتطلبات الصناعية وتشغيلهم لتحقيق الكفاءة التكنولوجية بغض النظر عن حالاتهم الاجتماعية. ما يقوله عن معارضة اليسار في الغرب ليس أفضل حالاً إذ خصص جزءًا لا يستهان به من المانيفستو في نقد اليساريين المعاصرين. يجد مِن اليساريين من يحاول التخلص من قيوده النفسية (الشعور بكره الذات والذنب والقصور) بالثورة لكنهم لا يجرؤون على مساءلة قيم المجتمع الأساسية، ما يفعله اليساري هو أخذ تلك القيم واتهام المجتمع بأنه لا يطبقها بما فيه الكفاية. قيم كالمساواة بين الجنسين، بين الأعراق، مساعدة الفقير، حرية التعبير وغيرها كلها قيم متأصلة في المجتمع الغربي لمدة طويلة، الإعلام والتعليم يعززان تلك القيم، اليساري لا يتحداها بل يتهم المجتمع بالتقصير في تطبيقها.

الثورة كاستحالة تقنية قد تحصل لترابط العالم، أي محاولة ثورية لا تنعزل بالحدود الدولية وستتحول لحربٍ بطريقة أو بأخرى. إشعال شرارة الثورة الأولى العفوية قد لا يكون استحالة تقنية لكن ديمومتها في ظلال التكنولوجيا والحضارة التقنية الواحدة يصل بحتمية إلى حرب إقليمية أو عالمية. الثورة الإسبانية تميّزت بتدفق آلاف المقاتلين من دول أخرى وتدخّل حكومات لدعم طرفي الصراع. خاصية ما كانت لتحدث بهذه الصورة لولا ارتباط العالم الصناعي.

قد يساعد هذا الارتباط والتشابك على فتح آفاق كانت مغلقة قبل الثورة الصناعية وثورة الإنترنت، لم يعد غريباً أن تجد مواطنين في بلدان بعيدة يدركون أبعاد قضاياك ويقفون بصفك (معنوياً). انعدام الأبعاد الجغرافية يسمح لتقارب فكري وبالتالي أيدولوجي، شباب اليوم منفتحون على معتقدات نمت في تربة ثقافية مختلفة، ولتقارب طبائع البشر ستتقارب بعض الأوجه لهذه المعتقدات أو قد يجمعها بكل بساطة الشعور السائد بالنقمة على هذا النظام العالمي وتجلياته المزعجة في كل أروقة حياة الفرد أينما كان، وربما ستنمو هذه التحالفات بمساعدة التبادل المعلوماتي المباشر والتحليل الأكثر عمقاً للأحداث السياسية بعيداً عن ضوضاء البروباغندا لتُنقل بعدها إلى أرض التطبيق. التقاطعات بين الأفكار المختلفة تعني تواجد أعداء مشتركين لتوجهات مختلفة، ليس هذا حكر على العالم التقني، مثالٌ تاريخي على ذلك تكاتف الشيوعيين (السلطويين) والأناركيين (أعتى أعداء السلطوية) في الثورات. الآن هذا احتمال مفتوح على عقائد لا يحكمها الجوار الجغرافي.

في الوقت ذاته علينا أن ندرك بعض المخاطر من التضامن الافتراضي ومن هول الأخبار البعيدة جغرافياً. أولاً يجب ألا ننخدع بوقفات من هم بعيدون عنا جغرافياً مع قضايانا على الإنترنت، فكم من السهل على أي شخصٍ أن يكتب كلمات تضامنية وتشجيعية، الكثير من الصفحات العربية مليئة بكلمات التضامن مع الشعب الفلسطيني، ماذا يعني ذلك على أرض الواقع؟ في فترات معينة نرى زخماً وكماً أكبر من التضامن الإنترنتي مع الثوار في سوريا، وقبلهم في ليبيا أو مصر، أكرر السؤال، ما فائدة كل هذه المنشورات على أرض الواقع؟ قد ينشغل الشخص بقضايا لا تخصه، تحت شعارات عجيبة عن الإنسانية، السؤال ينقلب عن خفة هذه المشاعر للمتلقي لهذه الأخبار، هل هناك فائدة حقيقية لاكتشاف مواطنٍ في دولة ما جرائم تحصل في دولة بعيدة عنه إن لم يكن قادراً على التأثير بها وهي لا تؤثر به أصلاً؟

تغيّر طبيعة الثورات فكرياً وفق كازنسكي تأتي من التضخم الفكري في كل الاتجاهات، حتى الأفكار الغريبة والشنيعة لها رواجها، الفنانون في يومنا يتسابقون بالتمثيل بالقيم المجتمعية. لذلك عند صدور أي فكرة ثورية حقيقية ستتكدر في كوم الأفكار المتراكمة، الأفراد لن يشهدوا وهجها كما لمح السابقون تنوّر الأفكار الثورية في مجتمعات تقليدية. كما أن الإنسان المعاصر تم تدجينه بعدة وسائل ولن يتجاوب مع الأفكار الثورية باندفاعية أسلافه. من هذا يستنتج كازنسكي أن رفع الوعي أو انتظار الصحوة الفجائية للمجتمع عن طريق الأفكار لا يعوّل عليه، على أي شخص يسعى لتحويل المجتمع أن يعمل على التنظيم والتطبيق الفعلي بالدرجة الأولى لا على نشر الأفكار.

خديعة أخرى من النظام تتعلق بالأساتذة الجامعيين، يقول كازنسكي أن المثقفين الجامعيين يعتبرون أنفسهم مفكرين مستقلين أحرار، مع أنهم في نظره عناصر أليفة والأكثر اعتماداً على النظام والأقل شجاعة واختلافاً عن مجتمعاتهم. صفات تجعلهم يشتهون الثورة لكن عدم قدرتهم على التفكير الحر يوقعهم ضحايا خدعة النظام وبدلاً من الثورة ضد قيمه يزعجون الناس ويستفزونهم بأطروحاتهم الثورية وهماً. أكاد أرى جوردان بيترسون ونعوم تشومسكي في هذه الكلمات.

ما الحل إذاً؟

لو سلّمنا بالمشكلة التكنولوجية التقنية وبمركزيتها فما الخطوة التالية؟ كازنسكي يحذر من توقع حلول سحرية تقدمها التكنولوجيا، ربما خطر في بال القارئ حلول مثل استخدام الطاقة المتجددة بدلاً من الوقود الأحفوري، كازنسكي يحاول إطفاء هذا الأمل بذكر آثار التكنولوجيا المستخدمة لاستخراج الطاقة، المراوح التي تستخرج طاقة الهواء تؤدي إلى قتل الطيور ومنها الجارحة، وموت تلك الطيور سيؤدي إلى انتشار القوارض التي كانت تقتات عليها الطيور مما يتطلب المزيد من المبيدات. الطاقة الشمسية ليست بخيارٍ أفضل، عندما تغطي الألواح المركزة للطاقة الشمسية مساحاتٍ شاسعة ستتضرر البيئة من حولها. على دعاة الطاقة المتجددة إدراك حجم الطاقة التي يستهلكها العالم الصناعي، مما يتطلب استخداماً مفرطاً من هذه المولدات للطاقة المتجددة على اختلافها، مما يعني أضراراً للبيئة وعواقب قد لا نراها كما لم يرَ مستخدمو الوقود الأحفوري خطورته في بدايات استخدامه.

لاستيعاب خطورة المشكلة التكنولوجية في نظر كازنسكي لنا أن نقرأ رده عندما تلقى سؤالاً عن الفوضى التي ستنشب بسبب الثورة ضد التكنولوجيا واحتمالية وقوع حربٍ نووية إثرها، إذ أجاب بأن الحرب النووية ستكون كارثية لكنها لن تمحو البشرية والكرة الأرضية، أي بمواجهة خيار بين حربٍ نووية وبين استمرار النظام التكنولوجي الصناعي سيختار الحرب النووية كالشر الأقل خطراً!

في نظر كازنسكي وعلى لسانه ولسان فعله، يكمن الحل الأمثل في تحطيم النظام التكنولوجي بضربة لا يقوم منها أو يتأخر قيامه منها، يمكن أن نلقبه مفجر الثورة المضادة للثورة الصناعية. انتظار تكنولوجيا تحل المشكلة التكنولوجية هو كمحاولة التخلص من النار بحرقها. لا يُبشّر بعالم مثالي بعد نجاح ثورته لكنه يرى في بقاء هذا النظام دمار الكوكب كما نعرفه أو تحولنا لعبيد للتكولوجيا أو مسوخٍ في المستقبل أو جميع ما ذكر، كلها نهايات علينا أن نثور ضد التكنولوجيا لتفاديها.

جاك إلول يعترف في مطلع كتاب "المجتمع التقني" (النسخة الأمريكية المُراجَعة) بأنه سيعرض المشكلة التقنية ويحللها دون أن يعرض الحلول لأن الحلول المذكورة هنا وهناك في الكتاب ليست عملية وإنما مثالية وبالتالي لا يمكن تطبيقها، لا يدعو إلى التشاؤم أو الاستسلام بالطبع، الحلول ستظهر لاحقاً. يطلب من القارئ ألا ينتظر من المفكرين وأساتذة الجامعات والتقنيين إيجادها، المعضلة تتطلب منا جميعاً بذل كل جهدنا وطاقاتنا وخيالاتنا لنجد الحلول، وعلى كل فرد أن يسعى لمقاومة العقبات التقنية في حياته الشخصية. الحرية بالنسبة لإلول ليست حقاً تضمنه الطبيعة أو قانوناً يُسن. أينما ننظر هناك جبريات والحرية تأتي بالتفوّق عليها. لا أدري ما رأي إلول بحل كازنسكي ولن أخمن في هذا المجال. من المهم أن يعرف القارئ أنني حتى وقت نشر هذه المقالة لم أقرأ كتابه المنشور لاحقاً "الخديعة التكنولوجية" كي أعرف كم غيّر من رأيه.

وفقاً لديفيد سكربينا، نظرته باتت أكثر تشاؤماً...